

كن جبلاً

في بداية سلوكي في طريق الدعوة.. دُعيت لإلقاء محاضرة في إحدى القرى.. استقبلني المسئول عن الدعوة هناك.. ركبت سيارته كانت قديمة متهالكة.. تحدثت معه.. أخبرني أنه حديث عهد بزواج.. ثم اشتكى إليَّ من غلاء المهور في قريتهم.. حتى إنه لم يستطع أن يشتري سيارة جديدة.. أو على الأقل أحسن من سيارته.. دعوت له بالتوفيق.. ثم دخلت وألقيت المحاضرة.. وفي آخرها.. قُرئت عليَّ الأسئلة.. وكان من بينها سؤال عن غلاء المهور.. ففرحت به وقلت: جاءك يا مهنا ما تتمنى!!

وانطلقت أتكلم عن غلاء المهور وتأثيره على الشباب والفتيات.. ثم ذكرتُ أن رسول الله ﷺ ما زوَّج بناته بأكثر من خمسمائة درهم.. ثم رفعت صوتي قائلاً: يعني بناتكم يا آل فلان أحسن من بنات النبي ﷺ؟!!

فصرخ رجل مُسنّ من طرف الصف قائلاً: إيش فيهم بناتنا؟ فثار آخر وقال: يتكلم على بناتنا!! ونهض الثالث جاثياً على ركبتيه وقال: اوووه تتكلم على بناتنا؟!!

كنت في حال لا أحسد عليه.. وكنت في أوائل طريق الدعوة.. وحديث التخرج من الجامعة.. بقيت ساكتاً لم أنبس ببنت شفة.. نظرت إلى الأول لما تكلم وتبسمت.. فلما تكلم الثاني.. نظرت إليه أيضاً وتبسمت.. وكذلك الثالث.. كان بعض الشباب في آخر المسجد يتضاحكون.. وبعضهم قاموا وقوفاً ينظرون.. وكأني بهم يقولون: وقف حمار الشيخ في العقبة (!!)

لما رأوا هدوئي.. هدؤوا.. ثم قام أحدهم وقال: يا جماعة.. خلوا الشيخ يوضح قصده.. فسكتوا.. فشكرت له عمله.. ثم اعتذرت وأثنيت عليهم – وعلى بناتهم – ووضحت مرادي..



عنـد تعاملـك مـع النـاس.. أنت في الحقيقـة تصنـع شـخصيتك.. وتبني في عقولهـم تصـورات عنـك.. يبنـون على أساسـها أسـاليب تعاملهم معك.. واحترامهـم لـك.. تأكد أن الأشـجار الثابتـة لا تقتلعهـا الريـاح.. مهمـا اشتدت.. وإنما النصر صبر ساعة..

كلمـا زاد عقلـك.. قـلَّ جهلـك.. وإذا زاد قـدرك.. قـلَّ غضبـك.. كالبحر لا يحركه أي شـيء.. ويا جبل ما تهزك ريح..! بل إنك لو اسـتثارك شخص ما.. في مجلـس.. أوبيـت.. أو قناة فضائيـة.. أو محاضرة عامـة.. فإنـك إذا بقيت هادئاً لم تغضب ولم تثر.. مال الناس معك ضده..

بعد معركـة بدر أرادت قريش أن تثأر لقتلاها، فخرجت بحدها وحديدها .. وجدها وأحابيشـها.. حتى نزلوا على شفير الوادي مقابل المدينـة.. فلما سمع بهم رسول الله ﷺ.. استشار أصحابه..

- ما رأيكم؟ نبقى في المدينة فإذا دخلوها علينا.. قاتلناهم..

- فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدراً: نخرج يا رسول الله إليهم نقاتلهم بـ (أحد)..

وَرَجوْا أن يصيبهم من الفضيلة ما أصاب أهل بدر.. فما زالوا برسول الله ﷺ حتى دخل بيته ولبس أداة الحرب.. ثم خرج إلى الناس.. فلما رأوه ﷺ متهيئاً للحرب ندموا.. وأحسوا أنهم أكرهوه على الخروج..

وقالوا: يا رسول الله أقم في المدينة إن شئت.. فالرأي رأيك..

- فقـال لهم: ما ينبغـي لنبي أن يضع أداته بعد ما لبسـها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه..

فلما نزل (أبو سـفيان) والمشركون بأصل جبل أُحُدٍ فرح المسلمون الذين لم يشهدوا بدراً بقدوم العدو عليهم.. وقالوا: قد ساق الله علينا أمنيتنا..

➤ ثـم قال النبي ﷺ لأصحابه: من رجـل يخرج بنا على القوم من كثب – أي من قريب – من طريق لا يمر بنا عليهم؟

➤ فقال رجل من بني (حارثة بن الحارث) اسمه (أبوخيثمة): أنا يا رسول الله..

فسـلك به في أرض بني (حارثة) وبين أموالهم ومزارعهم.. حتى سـلك به في مـال لرجل اسمه: (مربـع بن قيظي).. وكان رجلاً منافقـاً ضرير البصر.. فلما سمـع حِـسّ رسـول الله ﷺ.. ومـن معه مـن المسـلمين.. قام يحثـي في وجوههم الـتراب.. ويقول: إن كنت رسـول الله فإني لا أحل لـك أن تدخل في حائطي.. ثم أخـذ الخبيـث حفنة من التراب في يـده.. ثم قال: والله لو أعلـم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك..

فابتـدره الصحابـة الكـرام.. وهجمـوا عليـه مؤدبـين.. فقـال النـبي ﷺ: لا تقتلوه.. فهذا الأعمى.. أعمى القلب.. أعمى البصر..

ومضى رسول الله ﷺ.. ولم يلتفت إلى ذلك المنافق لأنه ﷺ كان رزيناً حكيماً عاقلاً لا يلتفت إلى السفهاء.. ولا تثور أعصابه للتافهين.. نعم..

لـو كل كلـب عـوى ألقمتـه حجراً   لأصبـح الصخـر مثقـالاً بدينـــار

والكلاب تنبح.. والقافلة تسييير..





لا تلعنه.. إنه يشرب خمراً !!

أكثر الناس الذين نخالطهم مهما بلغ أحدهم من السوء.. إلا أنه لا يخلو من خير وإن كان قليلاً.. فلو استطعنا ان نعثر على مفتاح الخير لكان حسناً..

اشتهر عن بعض المجرمين.. أنه كان يسطو على بيوت الناس ويسرق أموالهم.. لينفق بعضها على ضعفاء وأيتام!! ويبني بها مساجد!! أو كالتي ترى أيتاماً جوعى فتزني لتُحصِّل مالاً تسد به جوعهم..

بنى مسجداً لله من غير حله — فكان بحمد الله غير موفّق
كمطعمة الأيتام من كدّ عرضها! — لك الويل لا تزني ولا تتصدقي

وكم من حامل سكين ليطعن بها.. فاستعطفه طفل أو امرأة فَرقَّ قلبه.. وألقى سكينه عنه.. إذن عامل الناس جميعاً بما تعلم فيهم من خير.. قبل أن تسيء الظن بهم..

نبينا وقرة أعيننا محمد ﷺ.. بلغ من خلقه أنه كان يتلمس المعاذير للمخطئين.. ويحسن الظن بالمذنبين.. وكان إذا قابل عاصياً ينظر فيه إلى جوانب الإيمان قبل جوانب الشهوة والعصيان.. ما كان يسيء الظن بأحد.. يعاملهم كأنهم أولاده وإخوانه.. يحب لهم الخير كما يحبه لنفسه..

كان رجل في عهد النبي ﷺ قد ابتُلي بشرب الخمر.. فأتوا به يوماً وقد شرب خمراً إلى رسول الله ﷺ فأمر به فجُلد... ثم مرت أيام.. فشرب خمراً.. فجيء به أخري فجُلِد.. ومرت أيام.. ثم جيء به قد شرب خمراً.. فجُلِد.. فلما ولى خارجاً.. قال رجل من الصحابة:

- لعنه الله.. ما أكثر ما يؤتى به!!
- فالتفت إليه ﷺ.. وقد تغير وجهه فقال له: **لا تلعنه.. فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله..**[1]

فإذا تعاملت مع الناس فكن عادلاً.. اذكر الخير الذي فيهم.. وأشعرهم أن شرهم لم يجعلك تنسى خيرهم.. فهذا يقرّبهم إليك..



فن..

قبل أن تبدأ في نزع
شجرة الشر في الآخرين..
ابحث عن شجرة الخير واسقها..

(١) متفق عليه



إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون..!!

ما دمت مُلزماً فاستمتع..

هكذا كنت أقول لشاب أصيب بمرض السكر.. فكان يشرب الشاي من غير سكر.. ويتأسف لحاله.. كنت أقول له: هل إذا تأسفت وحزنت أثناء شربك الشاي.. هل تنقلب المرارة حلاوة.. قال: لا.. قلت: ما دمت ملزماً.. فاستمتع..

أعني أنَّ الدنيا لا تأتي دائماً على ما نحب.. وهذا يقع في حياتنا كثيراً..

سيارتك قديمة.. مكيف لا يشتغل.. مراتب ممزقة.. ولا تستطيع حالياً تغييرها.. ما الحل؟ ما دمت ملزماً فاستمتع..



تقدمت للدراسة بالجامعة.. فقبلت في كلية لا ترغب في الدراسة فيها.. حاولت تعديل الحال فلم تستطع.. فاضطررت لمواصلة الدراسة.. وأكملت سنتين وثلاث.. فما الحل؟ ما دمت ملزماً فاستمتع..

تقدمت لوظيفة فلم تقبل.. وقبلت في أخرى.. وبدأت دوامك فيها.. فما الحل؟ ما دمت ملزماً فاستمتع..

خطبت فتاة فرفضت.. وتزوجت آخر.. ما الحل؟ ما دمت ملزماً فاستمتع..

كثير من الناس يجعل الحل هو الاكتئاب الدائم.. والتأفف من واقعه.. وكثرة التشكي إلى من عرف ومن لم يعرف! وهذا لا يَرُدّ إليه رزقاً فاته.. ولا يعجل برزق لم يكتب له.. إذن ما الحل؟ إذا لم يكن ما تُريد فأرِدْ ما يكون..



العاقل فهو الذي يتكيف مع واقعه كيفما كان.. مادام لا يستطيع التغيير إلى الأحسن..

أحد أصدقائي كان يشرف على بناء مسجد.. فضاقت بهم النفقة.. فتوجهوا إلى أحد التجار للاستعانة به في إكمال البناء..

فتح لهم الباب.. جلس معهم قليلاً.. وأعطاهم ما تيسر.. ثم أخرج دواء من جيبه وجعل يتناوله.. قال له أحدهم: سلامات.. عسى ما شر!! قال: لا.. هذه حبوب منوّمة.. منذ عشر سنين لا أنام إلا بها.. دعوا له.. وخرجوا..

فمروا على حفريات وأعمال طرق عند مخرج المدينة.. وقد وضع عندها أنوار تعمل بمولد كهربائي قد ملأ الدنيا ضجيجاً.. ليس هذا هو الغريب.. الغريب أن حارس المولد هو عامل فقير قد افترش قصاصات جرائد.. وناااام.. نعم عش حياتك.. لا وقت فيها للهمِّ.. تعامل مع المعطيات التي بين يديك..

خرج ﷺ مع أصحابه في غزوة فقَلَّ طعامهم.. وتعبوا.. فأمرهم.. أن يجمعوا ما عندهم من طعام.. وفرش رداءه.. وصار الرجل يأتي بالتمرة.. والتمرتين.. وكسرة الخبز.. وكلها تجتمع فوق هذا الرداء.. ثم أكلوا.. وهم مستمتعون.. ربما لم يشبع منهم أحد.. لكنه على الأقل أكل ما يسدُّ به رمقه.. والجود من الموجود..

لمحة..



ما كل ما يتمنى المرء يدركه..
تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

نختلف ونحن إخوان!



ذُكر أن الشافعي -رحمه الله- تناظر يوماً مع أحد العلماء حول مسألة فقهية عويصة.. فاختلفا.. وطال الحوار.. حتى علت أصواتهما.. ولم يستطع أحدهما أن يقنع صاحبه.. وكأن الرجل تغير وغضب.. ووجد في نفسه.. فلما انتهى المجلس وتوجها للخروج.. التفت الشافعي إلى صاحبه.. وأخذ بيده وقال:
ألا يصح ان نختلف ونبقى إخواناً..!

وجلس بعض علماء الحديث يوماً.. عند الخليفة.. فتكلم رجل في المجلس بحديث.. فاستغرب العالم منه.. وقال:

- ما هذا الحديث!! من أين جئت به؟ تكذب على رسول الله ﷺ؟
- **فقال الرجل:** بل هذا حديث.. ثابت..
- **قال العالم:** لا.. هذا حديث لم نسمع به.. ولم نحفظه..
- وكان في المجلس وزير عاقل.. فالتفت إلى العالم وقال بهدوء: يا شيخ.. هل حفظت جميع أحاديث النبي ﷺ..؟
- **قال:** لا..
- **قال:** فهل حفظت نصفها؟
- **قال:** ربما..
- **فقال:** فاعتبر هذا الحديث من النصف الذي لم تحفظه.. **وانتهت المشكلة..**

كان (الفضيل بن عياض) و(عبدالله بن المبارك) صاحبين لا يفترقان.. وكانا عالمين زاهدين.. مضت الأيام فخرج (عبدالله بن المبارك) للقتال والرباط في الثغور.. وبقي (الفضيل بن عياض) في الحرم يصلي ويتعبد.. وفي يوم رقّ فيه القلب.. وأسبلت الدمعة.. كان (الفضيل) جالساً يتعبد في الحرم.. فاشتاق لصاحبه (ابن المبارك) وتذكر اجتماعهما في مجالس الذكر.. فكتب (الفضيل) إلى (ابن المبارك) كتاباً يدعوه فيه إلى المجيء والتعبد في الحرم.. والاشتغال بالذكر وقراءة القرآن.. فلما قرأ (ابن المبارك) الكتاب.. أخذ رقعة وكتب إلى (الفضيل):

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في ... أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

ثم قال: إن من عباده من فتح الله له في الصيام.. فيصوم ما لا يصومه غيره.. ومنهم من فتح له في قراءة القرآن.. ومنهم من فتح له في طلب العلم.. ومنهم من فتح له في الجهاد.. ومنهم من فتح له في قيام الليل.. وليس ما أنت عليه بأفضل مما أنا عليه.. وما أنا عليه.. ليس بأفضل مما أنت عليه.. وكلانا على خير..



وهكذا انتهى الخلاف بينهما بهدوء.. هكذا ببساطة كلانا على خير.. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾[1] .. وهكذا كان منهج الصحابة..

(١) القصص: ٦٨



اجتمع الكفار وتألبوا لحرب المسلمين في المدينة.. وجاؤوا في جيش لم تشهد العرب مثله كثرةً وعتاداً.. فحفر المسلمون خندقاً لم يستطع الكفار أن يتجاوزوه لدخول المدينة.. فعسّكر الكفار وراء الخندق..

وكان في المدينة قبيلة بني (قريظة).. وهم يهود يتربصون بالمؤمنين.. فأقبلوا إلى الكفار يمدونهم.. ويعيثون في المدينة فساداً ونهباً.. وقد انشغل المسلمون عنهم بالرباط عند الخندق..

ومضت الأيام عصيبة.. حتى أرسل الله على الكفار ريحاً وجنوداً من عنده فتمزق جيشهم.. وانقلبوا خائبين.. يجرون أذيال هزيمتهم في ظلمة الليل..

فلما أصبح رسول الله ﷺ.. انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة.. ووضع المسلمون السلاح.. ورجعوا إلى بيوتهم.. ودخل رسول الله ﷺ بيته.. ووضع السلاح واغتسل..

فلما كانت الظهر.. جاءه (جبريل).. فنادى رسول الله ﷺ.. من خارج البيت.. فقام رسول الله ﷺ فزعاً..

- فقال له (جبريل) عليه السلام : أَوَقَدْ وضعت السلاح يا رسول الله؟

- قال: نعم..

- قال (جبريل): ما وضعت الملائكة السلاح بعد.. وما رجعت الآن إلا من طلب القوم.. طلبناهم حتى بلغنا حمراء الأسد.. يعني قريشاً لما فارقوا المدينة راجعين إلى مكة.. سارت الملائكة وراءهم تطردهم لتبعدهم عن المدينة..

ثم قال جبريل: إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة.. فإني عامد إليهم فمزلزل بهم..

فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً.. فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة.. فتسابق الناس إلى سلاحهم.. وسمعوا وأطاعوا.. ومضوا إلى ديار بني قريظة..

فدخل عليهم وقت العصر وهم في الطريق.. فقال بعضهم: لا نصلي العصر إلا في بني قريظة.. وقال بعضهم: بل نصلي لم يُرِد منا ذلك.. يعني إنما أراد الإسراع إليهم..

فصلوا العصر وأكملوا مسيرهم.. وأخرها الآخرون.. حتى وصلوا (بني قريظة).. فصلوها.. فَذُكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحداً من الفريقين.. ثم حاصر النبي ﷺ (بني قريظة).. حتى نصره الله عليهم..

فتأمل كيف كانوا يختلفون وهم إخوان لا يؤدي خلافهم إلى فساد النفوس أو الشقاق والخصومات..

صدقني.. إذا تعاملت مع الناس بهذه الأريحية والهدوء.. وسعة الأفق.. أحبك الناس.. ودخلت قلوبهم.. وأحبك قبل ذلك الله جل وعلا.. فالخلاف شرّ..

وجهة نظر..

ليست الغاية أن نتفق..
لكن الغاية أن لا نختلف..

الرفق.. إلا زانه

يتكرر على ألسنتنا كثيراً عندما نعجب بشخص ما.. أن نصفه قائلين: فلان رزين.. فلان ثقيل.. فلان راكد.. وإذا أردنا مذمة شخص قلنا: فلان عجول.. فلان خفيف..

أما رسول الله ﷺ فيقول:

ما كان الرفق في شيء إلا زانه.. وما نزع من شيء إلا شانه..[١]

هل تستطيع تحريك طن الحديد بأصغر أصابعك؟



نعم: إذا أحضرت رافعة.. ثم ربطته برفق.. وأحكمت ربطه.. ثم رفعته.. فإذا تعلق في الهواء.. حركه بأصغر أصابعك..

اتفق صديقان على أن يتقدما لرجل لخطبة ابنتيه.. كانت إحداهما أكبر من الأخرى..

- قال أحدهما للآخر: أنا آخذ الصغيرة.. وأنت تأخذ الكبيرة..
- فصاح صاحبه: لا.. بل أنت خذ الكبيرة.. وأنا آخذ الصغيرة..
- فقال الأول: طيب.. أنت تأخذ الصغيرة.. وأنا آخذ التي أصغر منها..
- قال: موافق..!!

ولم يدرك أن صاحبه ما غيَّر قراره.. سوى أنه غيَّر أسلوب الكلام برفق..

(١) رواه مسلم.

وفي الحديث: إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق.. وإذا أراد الله بأهل بيت شراً.. نزع عنهم الرفق..[١]

وفيه: إن الله رفيق يحب الرفق.. ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.. وما لا يعطي على ما سواه..[٢]

الرفيق.. الهين اللين.. محبوب عند الناس.. تطمئن إليه النفوس.. وتثق فيه.. خاصة إذا صاحب ذلك وزن للكلام.. وقدرة على التعامل الرائع..

من أشهر علماء الحنفية الإمام (أبو يوسف القاضي).. هو أشهر طلاب (أبي حنيفة).. كان (أبو يوسف) في صغره فقيراً.. وكان أبوه يمنعه من حضور درس (أبي حنيفة).. ويأمره بالذهاب للسوق للتكسّب..

كان (أبو حنيفة) حريصاً عليه.. وإذا غاب عاتبه.. فاشتكى (أبو يوسف) يوماً إلى (أبي حنيفة) حاله مع والده.. فاستدعى (أبو حنيفة) والد (أبي يوسف) وسأله: كم يكسب الولد كل يوم؟ قال: درهمين.. قال: أنا أعطيك الدرهمين.. ودعه يطلب العلم..

فلازم (أبو يوسف) شيخه سنين.. فلما بلغ (أبو يوسف) سن الشباب.. ونبغ على أقرانه.. أصابه مرض أقعده.. فزاره (أبو حنيفة).. وكان المرض شديداً متمكناً منه.. فلما رآه (أبو حنيفة) حزن.. وخاف عليه الهلاك.. وخرج وهو يكلم نفسه قائلاً: آه يا (أبا يوسف).. لقد كنت أرجوك للناس من بعدي!!

ومضى (أبو حنيفة) يجر خطاه حزيناً إلى حلقته وطلابه..

ومضت يومان.. فشُفي (أبو يوسف).. واغتسل ولبس ثيابه ليذهب لدرس شيخه..

- فسأله من حوله: إلى أين تذهب؟
- قال: إلى درس الشيخ..

---

(١) رواه أحمد وهو صحيح
(٢) رواه مسلم.

- **قالوا:** إلى الآن تطلب العلم؟ أنت قد اكتفيت.. أما بلغك ما قال فيك الشيخ؟
- **قال:** وما قال؟!
- **قالوا:** قد قال: كنت أرجوك للناس من بعدي..

أي أنك قد حصلت كل علم (أبي حنيفة).. فلو مات الشيخ اليوم جلست مكانه..



فأعجب (أبو يوسف) بنفسه.. ومضى إلى المسجد ورأى حلقة (أبي حنيفة) في ناحية.. فجلس في الناحية الأخرى.. وبدأ يُدرس ويفتي!. التفت أبو حنيفة إلى الحلقة الجديدة..

- **فسأل:** حلقة من هذه؟
- **قالوا:** هذا أبو يوسف..
- **قال:** شُفي من مرضه؟!
- **قالوا:** نعم..
- **قال:** فلم لم يأت إلى درسنا؟!
- **قالوا:** حدّثوه بما قلت.. فجلس يدرس الناس واستغنى عنك..

ففكر (أبو حنيفة) كيف يتعامل مع الموقف برفق.. وجعل يتأمّل ثم قال:

يأبى، أبو يوسف إلا أن نُقشِّر له العصا!!

ثم التفت إلى طلابه الجالسين وقال: يا فلان.. اذهب إلى الشيخ الجالس هناك.. يعني أبا يوسف.. فقل له: يا شيخ.. عندي مسألة.. فسيفرح بك ويسألك عن مسألتك.. فما جلس إلا ليُسأل!! فقل له:

رجل دفع ثوباً له إلى خياط ليقصره.. فلما جاءه بعد أيام يريد ثوبه جحده الخياط.. وأنكر أنه أخذ منه ثوباً.. فذهب الرجل إلى الشرطة فاشتكاه فأقبلوا واستخرجوا الثوب من الدكان..

والسؤال: هل يستحق الخياط أُجرة تقصير الثوب أم لا يستحق؟

فإن أجابك وقال: يستحق.. فقل له: أخطأت.. وإن قال: لا يستحق.. فقل له: أخطأت..

فرح الطالب بهذه المسألة المشكلة.. ومضى إلى (أبي يوسف)..

- وقال: يا شيخ.. مسألة..
- قال: ما مسألتك؟
- قال: رجل دفع ثوباً إلى خياط...
- فأجاب (أبو يوسف) على الفور قائلاً: نعم يستحق الأجرة.. ما دام أتم العمل..
- فقال السائل: أخطأت..
- فعجب (أبو يوسف).. وتأمل في المسألة أكثر.. ثم قال: لا.. لا يستحق الأجرة..
- فقال السائل: أخطأت..
- فنظر (أبو يوسف) إليه.. ثم سأله: بالله من أرسلك..
- فأشار إلى (أبي حنيفة).. وقال: أرسلني الشيخ..

فقام (أبو يوسف) من مجلسه.. ومضى حتى وقف على حلقة (أبي حنيفة)..



- وقال: يا شيخ.. مسألة..

فلم يلتفت (أبو حنيفة) إليه.. فأقبل (أبو يوسف) حتى جثى على ركبتيه بين يدي الشيخ.. وقال بكل أدب:

يا شيخ.. مسألة..

- قال: ما مسألتك؟

- **قال:** تعرفها..
- **قال:** مسألة الخياط والثوب؟
- **قال:** نعم..
- **قال:** اذهب وأجب.. ألست شيخاً..
- **قال:** الشيخ أنت..
- **فقال (أبوحنيفة) في جواب المسألة:** ننظر في مقدار تقصير الخياط للثوب..

فإن كان قصره على مقاس الرجل.. فمعنى ذلك أنه قام بالعمل كاملاً.. ثم بدا له أن يجحد الثوب.. فيكون قام بالعمل لأجل الرجل.. فيستحق عليه الأجرة..

وإن كان قصره على مقاس نفسه.. فمعنى ذلك أنه قام بالعمل لأجل نفسه.. فلا يستحق على ذلك أجرة..

فقبّل (أبو يوسف) رأس (أبي حنيفة).. ولازمه حتى مات (أبوحنيفة).. ثم قعد (أبو يوسف) للناس من بعده..

فما أجمل الرفق ومعالجة الأمور بهدوء.. فلو استعمل الزوجان الرفق مع بعضهما.. وكذلك الأبوان.. والمديرون.. والمدرسون لزالت أكثر المشاكل والخصومات..

نحن مطالبون بالرفق دائماً.. في سواقة السيارة.. في التدريس.. في البيع والشراء.. وإن كان المرء قد يحتاج الشدة أحياناً.. حتى في النصح.. وهذه هي الحكمة في النصيحة.. وهي وضع الأمور في مواضعها..

وقد كان غضبه ﷺ دائماً – إن غضب – في الأمور الدينية.. فما غضب رسول الله ﷺ لنفسه قط.. إلا أن تنتهك حرمة من محارم الله..

قابل (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه يوماً رجلاً من اليهود.. فأطلعه اليهودي على كلام في التوراة.. فأعجبه.. فأمره فنسخه له.. ثم جاء (عمر) بهذه الصحيفة من التوراة إلى رسول الله ﷺ.. فقرأها عليه..

فلاحظ النبي ﷺ أن (عمر) معجب بما معه.. وأن التلقي عن الديانات السابقة.. إن فتح المجال له.. اختلط ذلك بالقرآن.. والتبس الأمر على الناس.. وكيف يفعل (عمر) ذلك.. وينسخ.. ويكتب.. دون استئذان النبي ﷺ!!

فغضب ﷺ.. وقال: أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟! أي شاكّون في شريعتي..

ثم قال: والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به والذي نفسي بيده لو أن موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني..(١)

نعم.. نحن نقول الرفق.. الرفق.. ولكن لابدَّ من العنف أحياناً والغضب..



ومن مواقف الغضب والصرامة أنه في أوائل بعثة النبي ﷺ يأتي عند الكعبة وقريش في مجالسهم.. ويصلي.. ولا يلتفت إليهم.. وكانوا يؤذونه بأنواع الأذى.. وهو صابر..

وفي يوم.. اجتمع أشرافهم في الحجر.. فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط.. سفّهَ أحلامنا.. وشتم آباءنا.. وعاب ديننا.. وفرّق جماعتنا.. وسب آلهتنا.. وصرنا منه على أمر عظيم..

فبينما هم في ذلك.. إذ طلع رسول الله ﷺ.. فأقبل يمشي حتى استلم الركن.. ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت.. فغمزوه ببعض القول.. فتغيّر وجه رسول الله ﷺ.. لكنه رفق بهم.. وسكت عنهم.. ومضى.. فلما مرَّ بهم الثانية.. غمزوه بمثلها..

(١) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وهو حسن.

فتغيّر وجهه أيضاً.. فسكت عنهم.. ومضى في طوافه.. فمرَّ بهم الثالثة.. فغمزوه بمثلها.. فرأى أن الرفق لا يصلح مع أمثال هؤلاء.. فوقف عليهم..

وقال: أتسمعون يا معشر قريش!! أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح..

ثم ظلّ الرسول القائد البطل ﷺ واقفاً أمامهم..



فلما سمع القوم هذا التهديد.. الذبح.. وهو الصادق الأمين.. انتفضوا.. حتى ما منهم من رجل إلا وكأنما على رأسه طائر وقع..

حتى أن أشدهم عليه ليتلطّف معه.. وصاروا يقولون:

انصرف أبا القاسم راشداً.. فما كنت جهولاً..

فانصرف رسول الله ﷺ عنهم.. نعم..

إذا قيل: حلم، قل: فللحلم موضع ... وحلم الفتى في غير موضعه جهل

وإن كان المتتبع لسيرة النبي ﷺ يجد أنه كان يغلب الرفق دائماً.. انتبه!! ليس الضعف والجبن.. وإنما الرفق..

ومن مواقف الرفق:

أنه بعد وقعة بدر بشهر.. أراد (أبو العاص) زوج (زينب) بنت النبي ﷺ أن يرسلها إلى المدينة عند أبيها.. فبعث رسول الله ﷺ (زيد بن حارثة).. ورجلاً من الأنصار وأمرهما بالتوجه إلى (مكة).. والانتظار في موقع قريب من (مكة) على طريق المدينة..

فقال ﷺ: كونا ببطن يأجج حتى تمر بكما (زينب) فتصحباها فتأتياني بها..

فخرجا مكانهما.. فأمرها (أبو العاص) زوجها بالتجهز.. فبدأت في جمع متاعها.. فبينما هى تتجهز.. لقيتها (هند بنت عتبة).. زوجة (أبي سيفان)..

- **فقالت**: يا ابنة (محمد).. ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟

فخافت (زينب) وخشيت أن تكون (هند) تريد بها كيداً..

- **فقالت**: ما أردت ذلك..

- **فقالت**: أي ابنة عم.. أن أردت أن تفعلي.. فإن كان لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك.. أو بمال تتبلغين به إلى أبيك.. فإن عندي حاجتك فلا تضطني مني.. أي لا تخجلي.. فإنه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال..

قالت (زينب): والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل.. ولكني خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك..

فلما أتمت (زينب) جهازها.. خشي زوجها أن يخرج بها بنفسه فتكتشف قريش خروجها.. فأمر أخاه (كنانة) بذلك..

فقدّم إليها أخو زوجها (كنانة بن الربيع) بعيراً.. فركبته وأخذ قوسه وكنانته.. ثم خرج بها نهاراً يقود بها وهي في هودج لها.. فرآها الناس.. وتحدث بذلك رجال من قريش.. كيف تخرج بنت (محمد) إليه وقد فعل بنا ما فعل في بدر..

فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بمكان اسمه ذو طوى.. وكان أول ما سبق إليها (هبار بن الأسود).. فروعها بالرمح وهي في الهودج.. فقيل: إنها كانت حاملاً ففزعت.. وطرحت ولدها..

وأقبل الكفار يتسابقون إليها.. معهم السلاح.. وهي ليس معها إلا أخو زوجها (كنانة).. فلما رأى (كنانة) ذلك.. برك على الأرض.. ثم نثر كنانته وصفَّ رماحه بين يديه.. ثم قال:

والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهماً.. **وكان رامياً..**

فتكركر الناس عنه وتراجعوا.. وأخذوا ينظرون إليه من بعيد.. لا هو يقدر على الذهاب.. ولا هم يجترئون على الاقتراب منه..

حتى بلغ (أبا سفيان) أن (زينب) خرجت إلى أبيها.. فأقبل في جِلّة جمع من قريش.. فلما رأى (كنانة) قد تجهز بنبله.. ورأى القوم قد استوفزوا لقتاله.. صاح به وقال: يا أيها الرجل.. كُفَّ عنا نبلك حتى نكلمك.. فكف نبله..

فأقبل (أبوسفيان) حتى وقف عليه.. فقال: إنك لم تُصِب.. خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية.. وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا في بدر.. وما دخل علينا من محمد.. قتل أشرافنا.. ورمَّل نساءنا.. فإذا رآك الناس.. وتسامعت القبائل.. أنك خرجت بابنته علانية.. على رؤوس الناس من بين أظهرنا.. سيظنون أن ذلك عن ذل أصابنا.. وأن ذلك ضعف منا ووهن.. ولعمري مالنا بحبسها من أبيها من حاجة.. ومالنا من ثأر عليها.. ولكن ارجع بالمرأة.. حتى إذا هدأت الأصوات.. وتحدث الناس أن قد رددناها.. فسُلَّها سراً.. وألحقها بأبيها..

فلما سمع كنانة ذلك.. اقتنع به.. وعاد بها.. فأقامت ليالي في مكة.. حتى إذا هدأت الأصوات.. خرج بها ليلة من الليالي.. فمشى بها.. حتى أسلمها إلى (زيد بن حارثة) وصاحبه.. فقدما بها ليلاً على رسول الله ﷺ..

فتأمل كيف كان (أبو سفيان) رفيقاً.. وكيف استطاع أن يمتص غضب (كنانة).. ويمنع مقتلة ربما تُقتل فيها بنت رسول الله ﷺ.. هذا.. و(أبوسفيان) في ذلك الوقت كافر.. فما بالك بالمسلمين..

وحي..



ما كان الرفق في شيء إلا زانه..
وما نزع من شيء إلا شانه..